

الوجه دآلية للتواصل عند إيمانويل ليفيناس

د. أسماء محمد محمد حلمي

مدرس مساعد بقسم الفلسفة
كلية الآداب – جامعة بنها

"نحن" أسبق على الأنا والآخر.⁽¹⁾ تتجلى في ضوء هذه العبارة فلسفة إيمانويل ليفيناس^(*) كفلسفة أنطولوجية تعبر عن وحدة خلقية، غايتها تقديم الخطوط العريضة للتعامل بين الأنا والآخر. فقد انعطف ليفيناس بالفكر الفلسفي من التمركز حول فكرة الوجود إلى التركيز على الأخلاق وجعلها الفلسفة الأولى. إن الفلسفة الأخلاقية كما يذهب ليفيناس هي فلسفة اجتماعية، لأنها تباشر كل ما يخص الإنسانية، وفلسفته على وجه الخصوص تدعو للتجاوز لا للتناحر، وقد كان (الوجه) هو حجر الأساس الذي بنى عليه الفيلسوف فلسفته الأخلاقية، وجعله المحك الأساسي للتواصل بين الأنا والآخر، وذلك لأنه لا يمكن الفصل بين الآخر ووجهه، مشيراً إلى أن اللقاء بالوجه هو بمثابة الحدث الذي يكمن فيه الحوار وربما يكون حوار من دون خطاب موجه، فالوجه هو ظاهرة تشير إلى ماهية الإنسان بالمعنى الفينومينولوجي. كما لو كان ذلك الخطاب هو تجلّ لئله على الوجه لحظة اللقاء؛ حيث يقول ليفيناس: "فحينما تلتقي الأنا بالأنث تبدأ العلاقة الأصلية للحدث الأخلاقي".⁽²⁾

وهذا البحث هو محاولة متواضعة تهدف إلى عرض فلسفة ليفيناس، حيث يتبادر للذهن بعض التساؤلات؛ إذ كيف يكون التواصل بين الأنا والآخر من دون خطاب؟ وما أثر النداء الإلهي الذي تسمعه الأنا في وجه الآخر في الأثر الفطرية التي يشعر بها الفرد؟ وعلى هذا النحو ما حدود المسؤولية التي تشعر بها الأنا تجاه الآخر؟ وكيف يفترض ليفيناس إمكان التضحية من أجل الآخر؟

(1) Emmanuel Levinas: Totality and Infinity an Essay On Exteriority, translated by Alphonso Lingis, Martinus Nijhoff publishers, London, 1979, p 68.

(*) إيمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas: (١٩٠٦-١٩٩٥) ولد الفيلسوف في ليتوانيا، وهو من أسرة يهودية، وقد أمضى معظم حياته في فرنسا، أثرت الحرب العالمية الثانية فيه بعمق، بل وساعدت في تكوينه الفلسفي، وكان قد بدأ في كتابة دراسات تلمودية، إلا إنه شعر بأن فلسفته تنتمي لنسق فكري آخر، حيث تأثرت دراساته الفلسفية الأولى بفينومينولوجيا هوسرل وأنطولوجيا هايدجر، وقد عبر عن انضج أفكاره في كتابه: الكلية واللامتناهي (١٩٦١)، وبعد ذلك قام بنشر مجموعة من من المقالات أدت إلى: ما وراء الوجود (١٩٧٣)، ومن ثم أستأنف كتابته في الدراسات التلمودية ولكن كشخص ديني بحث. فقد بدأ من الفينومينولوجيا، ومضى قدماً إلى العلو الميتافيزيقي، وجعل من الأخلاق -على حسب تعبيره- الفلسفة الأولى.

Richard Kearney:

"Philosophies of Religion" In: Twentieth-Century Continental Philosophy, Vol VIII, Routledge, London, 1994, P. 156.

(2) Emmanuel Levinas: Of God who Comes to Mind, translated by Bettina Bergo, Stanford University press, California, 1998, p. 107.

وفيما يلي عرض لعناصر البحث:

- أولاً هيرمينوطيقا الوجه وما بعد الوجه.
- ثانياً أثر اللامتناهيخلف ستار وجه الآخر.
- ثالثاً تقديس العلاقة الأخلاقية بين الأنا والآخر عبر الوجه.
- رابعاً تأسيس المسؤولية الذاتية عن الآخر.
- خامساً خاتمة.
- سادساً قائمة المصادر والمراجع.

هيرمينوطيقا الوجه وما بعد الوجه:

يعد مصطلح "الوجه"، هو المصطلح المميز لفلسفة ليفيناس، كما يصفه ألفونسو لينجز AlphonsoLingis^(*) ويشير إليه في مقدمة كتاب (Collected Philosophical Papers) لليفيناس حيث يقول إن مفهوم الوجه هو بمثابة اللحظة المركزية في فينومينولوجيا ليفيناس".^(٣)

يرى ليفيناس أن التواصل بالوجه يشكل نمط المسؤولية الأكثر أساسية. فوجه الآخر يمثل العمومية والاستقامة، فهو يعني علاقتي بالنزاهة. ووجه الآخر وهو أمامي دائماً ما أضع أولويته فوقي، بمعنى أنه يتم تأويل الآخر وكأنه أمام الموت، فهو ينظر إليّ نظرة يتجلى فيها مخاوفه تجاه الموت. ومن جهة أخرى، يعتبر ليفيناس الوجه هو الآخر الذي يطلب مني ألا أتركه يموت وحيداً، وكأنني بتركه أكون شريكاً في موته. إن الوجه يخاطبني قائلاً: "لن تقوم بالقتل أبداً" ففي العلاقة بالوجه يتم التنديد بي كمغتصب لحرية الآخر. بيد أن "الحق في الوجود" الذي سماه سبينوزا بالمجهود الماهوي، وحدده كمبدأ أساسي لكل معقولة، قد أعيد فيه النظر من طرف العلاقة بالوجه. وبالتالي فإن واجبي المتمثل في الاستجابة للآخر، يعلق حقي الطبيعي في البقاء كحق حيوي.^(٤)

وتبدأ الأخلاق عند ليفيناس فور اللقاء بالآخر، وبمجرد النظر إلى الوجه، فإن اللغة الخلقية هي أول ما يسود، ويرفض ليفيناس حسم الوجه بتلخيصه في الوجه المجرد، لأن ما يعنيه بالوجه غير مقصور على رؤيته فقط بالعين، بل ما تكشفه من ورائه. فالرؤية الحقيقية للوجه تكمن فيما بعد الوجه، بحيث تتفتح من خلاله الأنا على الآخر، وتتشأ علاقة بتجلي الله في وجه الآخر، حيث يقول ليفيناس: "إن حقيقة بنية ما وراء الوجه هو العلاقة الأخلاقية التي يكمن فيها الحوار مع اللامتناهي (الإله)، بحيث تكون هذه العلاقة بين الأنا في الواقع والتمتالي اللامتناهي كنتيجة للتواصل الميتافيزيقي بالوجه دون حوار".^(٥)

(*) AlphonsoLingis: فيلسوف أمريكي من جذور ليتوانية، كاتب ومترجم، ولد عام ١٩٣٣، ويعمل حالياً كأستاذ متفرغ بجامعة ولاية بنسلفانيا، ومتخصص في الفينومينولوجيا، والوجودية، والفلسفة المعاصرة، والأخلاق. نقلاً عن

https://en.wikipedia.org/wiki/Alphonso_Lingis

(3) Emmanuel Levinas: Collected philosophical papers, Translated by: AlphonsoLingis, Martin Najhoff Publishers, Dordrecht, the Netherlands, 1987, p: xxix.

(٤) ريتشارد كيرني: مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس من الفينومينولوجيا إلى الإيتيقا حوار مع إيمانويل ليفيناس، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، أوراق فلسفية إيمانويل ليفيناس – عادل ضاهر العدد ١٧، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٨.

(5) EmmanuelLevinas: Totality and Infinity an Essay On Exteriority, p 80.

وهنا يشير ليفيناس إلى تجاوز الوجه كعينين أو أنف أو ذقن، إلى ما وراء ذلك فليس ما يقصده من الوجه ذلك المظهر الذي يتجلى أمام المشاهدين، سواء كان هذا وجه جميلاً أم قبيحاً، أم ما يمكن تسميته بـ "فينومينولوجيا الوجه"، حيث إن الخاصية الأساسية للوجه التي تختلف به عما سواه من باقي الأعضاء هي المعنى المستخلص من الوجه ككل بصرف النظر عما نراه منه من ملامح، لأن الوجه عند ليفيناس ليس ظاهرة مثل تلك الظواهر التي تبدو أماناً في الوجود، ولا يمكن تفسيره بهذه السهولة، فقد يظهر على الوجه حالة من الصفاء التي يشعر بها الفرد، أو ما يجول في خاطره من ألم، أو حتى سعادة؛ وليس لما يظهر على الوجه نفسه علاقة بما نراه منه كشكل؛ فعمق تحليل ليفيناس للوجه يشير إلى ما يمكن تسميته بـ "ما وراء الوجه"، أي إضفاء معنى لكل ما لا يبدو ظاهراً على الوجه بشكل مباشر؛ ولذلك يقول ليفيناس: "الوجه حدث أساسي للتواصل، من بين الطرق العديدة للاقتراب من الموجود، وللارتباط به، يعد فعل الوجه خاصاً، إلا أنه من الصعب إعطاء وصف دقيق على الصعيد الفينومينولوجي للوجه. إن فينومينولوجيا الوجه هي غالباً سلبية"^(٦). فهي لا تنظر إلى الوجه على أنه شيء ما نستطيع أن نراه أو نلمسه، لكن تنظر إليه عن طريق المرور من خلال تغيير وجهات النظر، فالوجه لا يمتلك شكلاً بلاستيكيّاً يمكن تحويله إلى صور ثابتة، ولا توجد فكرة كافية يمكن من خلالها أن نتمثله أو نفهمه. والتواصل بالوجه لا يقتصر على العالم الخارجي، بل يفتح الطريق للعالم الداخلي. ومن ثم كان الوجه عند ليفيناس بمثابة طريق، لا يمكن الحديث عنه إلا بلغة أخلاقية.^(٧)

وهنا يتحدث ليفيناس عن تبعات اللقاء بالآخر، فوجه الآخر هو ما لا يمكن اختزاله أبداً لأنه يحمل دلالات تجسد الإنسانية قبل أن تجسد الآخر نفسه. فما وراء الوجه الذي ذهب إليه ليفيناس ليس ما ينكشف لي من ملامح من خلال رؤية الآخر، بل ما أكشفه أنا من حقيقة الوجه الذي يتجلى لي فينومينولوجياً من خلال الرؤية، فإذا كان للسان لغة يتواصل بها البشر، فإن التواصل بالوجه أصدق حديثاً، وأكثر تجاوباً وتعبيراً.^(٨)

وبذلك يؤكد ليفيناس أن محك التواصل الأساسي مع الآخر هو رؤيته وجهاً لوجه، مشيراً إلى أن هذا التواصل لا يتطلب بالضرورة حدوث حوار، فبالرغم من القول بأن الوجه لا يتكلم، إلا أننا نسمع صوته وبوضوح حيث يقول: "من المؤكد أن الوجه والحوار يرتبطان،

(٦) إيمانويل ليفيناس: مفارقة الخلقية - حوار مع إيمانويل ليفيناس، حاوره: تامارا رايت، وأليسون آينلي، مجلة الاستغراب، العدد العاشر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ٢٠١٨، ص ١٢.

(٧) غيضان السيد علي: التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس، مجلة كلية الآداب، جامعة المنيا، العدد ٨٧، المجلد الأول، يوليو ٢٠١٨، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

(٨) المرجع نفسه، ص ٣٨٨.

لأن الوجه يتكلم، بل إنه هو من يبدأ الحوار".^(٩) وهكذا فإن اللغة هي الوظيفة الأساسية للتفكير العقلاني، فهي ما يمنح المتكلم إمكانية التعبير عن الوجود وعن هويته الأساسية.^(١٠) ولأن التواصل أساسه الوجه، يرى ليفيناس أن هناك نزوعاً قوياً بداخل الأنا لرؤية وجه الآخر والإحاطة به، فالوجه يتكلم.^(١١)

ولأن الآخر لا يتكلم من دون وجه، فالوجه هو الدلالة الأخلاقية، بحيث يبين أصل الأخلاق ويتجاوز المحسوس، إنه اللامرئي، ومعناه لا يُختزل في أية مقولة، والآخر لا يقول أي شيء، لأنه يعرض كوجه، يعطي كلاماً مفهوماً، يعبر عن حقيقة الآخر، إننا أمام الوجه يمكننا أن نقرأ فيه كل المعاني التي لا تستطيع لغة ما التعبير عنها وبالفصاحة نفسها، فالوجه إذن "خطاب يتكلم بوجه"، وهو مصدر كل المعاني الظاهرة. إنه -أي الوجه- هو الذي يبدأ كل خطاب، وكل إمكانية للخطاب، ذلك الخطاب الذي يعبر بشكل دقيق عن تلك المسؤولية التي ستقوم عليها تلك العلاقة الأساسية بين الوجه كآخر وبين الأنا.^(١٢) وهنا يقول دريدا: "إن وجهاً لوجه إذن يتخلص من كل المقولات، لأن الوجه يظهر لنا في آن واحد كتعبير وكلام، وهو ليس فقط نظرة، بل وحدة أصلية من العين والشم الذي يتكلم".^(١٣)

ويشير ليفيناس إلى أنك عندما تنظر إلى الوجه، يجب أن تلتفت إليه كما لو كنت تنظر إلى شيء كلي حي، ليس فقط الملامح أو أجزاء الوجه منفصلة، فيجب أن ننظر إلى الوجه بوصفه تجلياً استثنائياً للذات بذاتها. وإن أفضل طريقة للنظر إلى الآخر هي عدم التدقيق فقط في عينيه مثلاً، لأن هذا النظر لن يجعلك قادراً على أن تقيم علاقة اجتماعية مع هذا الوجه، بل سيشيئ العلاقة، فيجعلها كعلاقة شيء بشيء آخر، دون العبور إلى ما وراء الوجه. أي أن ليفيناس يرفض فينومينولوجيا الوجه التي تقصر فهمه على شكله الظاهري، أو ما يتبدى منه. ومن ثم يمكننا فهم قوله: "فليس الوجه شيئاً يمكنني أن أدركه، بل هو تجلٍ وحالة من التكشف".^(١٤) أو قوله "إن الوجه ليس مرئياً، إنه ما لا يمكن احتواؤه، ويقودنا دوماً إلى الماوراء". فالوجه يكشف عن المشاعر الداخلية للكائن البشري، وهو ما

(9) Emmanuel Levinas, *Totality and Infinity*, p 81.

(10) Ibid, p 204.

(11) Ibid p 206.

(12) Emmanuel Levinas: *Ethics and Infinity Conversations with Philippe Nemo*, Translated by: Richard A. Cohen, Duquesne University Press, Pittsburgh, 1985, p 86.

(13) Jacques Derrida: *L'écriture et la Différence*, Edition de Seuil, Paris, 1967, p: 148.

نقلًا عن رحيم عمر: فينومينولوجيا الوجه والإيروس عند إيمانويل ليفيناس، رسالة ماجستير غير منشورة، شعبة الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر، ٢٠١٥-٢٠١٦، ص ٦٢.

(14) Emmanuel Levinas, *Totality and Infinity*, p 194.

يُتيح إمكانية التحوار وهو الذي يبدأ الحوار، فثمة علاقة وثيقة بين الوجه والحوار. وليس ثمة تعبير عن الغموض أكثر من الحياة الروحية، فيمكننا أن نجعلها أكثر دقة باستبعادها من أي صلة تربطها بالعنف، والعنف هو أن تتصرف كما لو كنت وحدك إلا أنه عندما تلتقي بوجه الآخر، فإنك تتعرف عليه أو تعرفه ذاتك، هذه العاطفة -إن صح تسميتها حب- تصيبنا بالسهم الغادر. وعندما تتبادل الوجوه الكلام، فالوجه يتكلم، واللغة وهذا التبادل الذي يتطلبه الكلام هو بالتحديد العمل بلا عنف.^(١٥)

والحوار^(*) عند ليفيناس هو أهم عمل للوجه، بل هو المحك الأساسي للتواصل بين الأنا والآخر، فمن خلال الحوار الذي يقدمه الوجه تتحمل الأنا مسؤولياتها تجاه الآخر، فيصبح الوجه في حالة من الثراء رغم فقره وبؤسه، هذا بالإضافة إلى اللغة المنطوقة لتحية الآخر، وهنا يصبح من الصعب البقاء في حالة صمت أمام وجه يتكلم، فلا بد من رد التحية، ومن ثم إقامة علاقة ما.^(١٦)

إذا فتصور مفهوم الوجه عند ليفيناس ينقسم إلى قسمين:

الأول: فينومينولوجيا الوجه (الوجه الشكلي)، وهو الوجه كشكل، وما يتبدى عليه من نظرات، وتقسيمات، وإيماءات، يمكن أن تحمل معانٍ مختلفة من علامات القبول والرضا، أو الكراهية والحقد والغضب.

الثاني: ميتافيزيقا الوجه (الوجه اللاشكلي)، أو ما وراء الوجه، إنه ما لا ينشغل بالزمان والمكان، وليس محدوداً بعالم الأشياء، فهو ما يحمل دلالات أخلاقية، ولكي نفهم هذا الوجه يجب أن نغوص في معانيه العميقة وإنسانيته اللامتناهية. وأما ما نحسه نحن وراء هذا الوجه، وما نعاني منه في تصفحنا له، فإنما هو اللاوجه الإلهي.^(١٧)

فالوجه يفتح الخطاب الأولي الذي هو التزام أخلاقي تجاه الآخر، ويشير ليفيناس إلى الحوار الذي لا يُسمع عند التواصل (بالوجه) حيث يقول: "فالوجه يدعوني، مع عوزه وفقره، ومع ذلك لا يمكنني أن أصم أذني أمام هذا النداء.. فالوجه يفتح الخطاب الأولي الذي هو

(15) Emmanuel Levinas: *Difficult Freedom essays of Judaism*, translated by: Sean Hand, The John Hopkins University Press, Baltimore, 1990, p: 6-7.

(*) يؤكد ليفيناس إمكانية حدوث حوار بين الأنا والآخر من دون أي خطاب، بمعنى أن لقاء الوجه وحده كاف لإدراك أول حوار بين الأنا والآخر-المتمثل في لا تقتلني-، بيد أن الحوار عند هايدجر يركز أساساً على اللغة، فاللغة عنده هي القدرة على التعبير، حتى إنه يذهب بالأنية إلى أنها حوار، وتكمن استمرارية وجودها إلى ممارسة الحوار مع الآخرين. ويشير إلى أننا في الحوار لا نفهم المقصود إلا بإدراك معنى الكلام، حيث يقول: "إن اللغة أسلوب تفصح من خلاله الأشياء عن نفسها، وفيها تكمن طريقة تفسير فهم الموجود". صفاء عبد السلام جعفر: الوجود الحقيقي عند مارتين هايدجر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ١٩٩.

(16) Emmanuel Levinas, *Totality and Infinity*, p 214.

(١٧) غيضان السيد علي: التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

بالنسبة لأننا بمثابة إلزام أخلاقي، وهذا الإلزام يستدعي الإرادة. والإرادة لها الحرية في أن تأخذ على عاتقها هذه المسؤولية على النحو الذي تحبه، ولكنها ليست لها الحرية في رفض هذه المسؤولية نفسها، فهي لا يمكنها أن تتجاهل العالم المفعم بالمعاني الذي يقدمه لها وجه الآخر".^(١٨) وعن طريق العلاقة التي تنشأ فور مواجهة الآخر وجهاً لوجه يحدث نظرة إدراك لما وراء هذا الوجه، فليس بالضرورة أن تكون هذه العلاقة علاقة ترحيب وصدافة، بل يمكن أن يشير الوجه إلى نظرة ازدراء، أو نصارة حب واحترام.

بيد أن أول خطاب ندركه بالتواصل وجهاً لوجه ومن دون أي حوار هو منع القتل، والحرص على عدم وضع حياة الآخر في خطر، فالفلسفة الأولى عند ليفيناس هي الأخلاق في تعبيرها عن المسؤولية، وهنا يقف على مدى ارتباط الأخيرة بالزمان، والموت. حيث يقول ليفيناس: "العلاقة مع الموت تأتي على هيئة سؤال عميق لعلاقتي بالإله أمام وجه الآخر، فهي علاقة عاطفية أمام موت الآخر، الخوف أم الشجاعة؟ فخلق هذا التعاطف هو التكافل ووضع الآخر في حيز مسؤولية الأنا التي لا تنتظر الأنا مقابل لها، وذلك هو ما نبحت عنه بسؤال الفرق بين الموت (*) والزمان".^(١٩)

ثانياً: أثر اللامتاهي (**): خلف ستار وجه الآخر:

يشير ليفيناس إلى أن عنصر اللقاء وجهاً لوجه أثناء التواصل يحمل دلالات هامة قد تغيب تماماً إذا لم يحدث هذا اللقاء، فإذا كان الكلام في الحوار يرسم شكل العلاقة الضمنية بين الأنا والآخر، فما يحدث عند لقاء الوجه هو أن تزداد هذه العلاقة وضوحاً؛ إلا أن ليفيناس لا يغفل أيضاً دور الكلام، بحيث يرى أنه يفتح مساحات للترحاب بالآخر، إذ يقول

(18) Emmanuel Levinas, Totality and Infinity, p: 218-219.

(*) وقد كشف هنا ليفيناس عن أهمية الموت في تحديد العلاقة مع الآخر، وذلك بإعطاء الأساس الأخلاقي للزمان والموت، بإفراغهما من الصبغة الأنطولوجية، فالموت يجعل الفرد يدرك معنى الفرص الأخيرة والتي يستثمرها لأجل غيره، على شكل عطاء، وهنا فقط سيفرغ الموت من دلالاته البيولوجية والأنطولوجية لينحول إلى معنى أسمى يمكن أن ينتج من رعب الموت ذاته، وهكذا تتحول العلاقة مع الموت من مشكلة أنطولوجية إلى علاقة أخلاقية. أما هايدجر فيشير إلى أن الخوف على الآخر أو من أجله يمكن أن يكون أسلوباً للوجود الحقيقي في العالم؛ موضحاً أن الموت تجربة فردية لا يمكن لأحد أن ينوب عن الآخر، حيث يقول: الموت هو نوع من الوجود لم نجربه، ويكشف عن نفسه بوصفه فقداناً لا يعرفه سوى الباقيون على قيد الحياة... ونحن نرقب موت الآخر عن بعد، وإذا أمكننا أن نجعل موت الآخر ممكناً من الناحية النفسية، لأدركنا أن الوجود نفسه طريقاً للموت". إلا أنه لا يعني بذلك أنه لا يمكن التضحية من أجل الآخر، بل يمكن ذلك بيد أن مغزاه هنا في استحالة الإنابة تكون في واقعة الموت نفسها وليست في التضحية، وكانت تفسير الموت عند هايدجر تمهيداً للبحث في الزمان نظراً لعلاقتهما، حيث يوجه انتباهنا أولاً لماهية الموت وينتهي بالقول إن الموت هو الشرط الجوهري الذي في ضوئه يصبح الزمان مُدركاً. نقلاً عن صفاء عبدالسلام جعفر: الوجود الحقيقي عند مارتن هايدجر، ص ٣٢٦، ٣٢٨. بتصرف.

(19) Emmanuel Levinas: God Death and Time, translated by: Bettina Bergo, Stanford press university, California, 2000, p 17.

(**)The Trace of the Infinite.

ليفيناس: "إنني عندما أتحدث مع شخص ما في حوار، فبذلك يكون الحديث بين الذات "المضيفة"، والآخر "الضيف".^(٢٠) ويضيف قائلاً: "الإله الذي يهمني حديثه عبر ستار وجه الآخر هو تعالٍ لا يعدو كونه حضوراً، فوجه الآخر هو الطريق للدلالة عنه، ولكن الإله لا يمكن أن يوجد بالمعنى الحرفي لكلمة (كائن)، بل هو يوجد (باختقائه)."^(٢١)

ويؤكد ليفيناس على إمكان الحوار مع الآخر عن طريق الوجه، فالوجه يعد دعوة من أجل فتح خطاب للتواصل. إن الوجه وعلى الرغم من إمكانية كونه هشاً يظهر عليه دلالات الضعف؛ إلا أنه لا يمكن ممارسة العنف أو القتل في مواجهته، لأنه يتجلى فيه نداء اللامتتاهي (الإله) الذي تُسمع كلمته عبر الوجه ودون أي حوار، بحيث يبدأ الأنا في سماع أوامر اللامتتاهي بالحفاظ على الآخر، وشعوري بالمسئولية تجاهه.^(٢٢) وهكذا يصبح الإله عند ليفيناس متجلياً في غيابه أكثر من حضوره.

وقد كان لليفيناس تصوره الخاص عن المسئولية تجاه الآخر، بحيث رأى أنه يجب علي أن أعد نفسي لتحمل مسئولية الآخر، حتى وإن أدى الأمر إلى توضيحي بنفسي من أجله، وفي حقيقة الأمر ذلك يحدث بالفعل منذ النشأة، فالفكرة نفسها في أن أضع ذاتي محل الآخر، ومن هنا أرى أن الحرية في أن استبدل إرادتي بإرادة الآخر.^(٢٣) وذلك نفسه هو الأمر الذي يجعل من حريتي شيئاً ما يمكنني أن أضحي به في مقابل حمايته، فالآخر نفسه الغريب عني يمكنني أن أعرض حياتي للخطر فقط لحمايته، وذلك تلبية لنداء اللامتتاهي المتجلي في وجهه، فلا يكون مني إلا أن أخضع لذلك النداء مستجيباً لأوامره المطلقة، ويشير ليفيناس إلى قدرة اللامتتاهي المطلقة على فرض ندائه على مسامعي دون أن ينبس الآخر ببنت كلمة، فيقول: "إن فكرة الكمال لا نجد لها إلا مع اللامتتاهي الذي يتصف بكل معاني العلو والنبيل".^(٢٤)

ولا يعني ذلك أننا نرى الإله في الآخر -بل ولم يقصد ليفيناس نفسه هذا المعنى- وإنما نسمع نداءه عبر وجه الآخر، حيث يقول ليفيناس: "إنني لا أقول إن الآخر هو الله، بل

(20) Emmanuel Levinas: Of God Who Comes To Mind, translated by Bettina Bergo, Stanford university press, California, 1998, p 142.

(21) Emmanuel Levinas: Alterity and Transcendence, Translated by: Michael B. Smith, The Athlone Press, London, 1999, P: 169.

(22) Emmanuel Levinas: Otherwise Than Being Or Beyond Essence, translated by Alphonso Lingis, Kluwer Academic publishers, Netherlands, 1991, p 144-145. See Also Emmanuel Levinas, Totality and Infinity, p 213.

(23) Terry Eagleton: Trouble With Strangers: A Study Of Ethics, Wiley-Blackwell A John Wiley & sons publications, Sussex, 2009 p 232.

(24) Emmanuel Levinas, Totality and Infinity, p 49.

إنني أسمع عبر وجه الآخر كلام الله، وهذا ما تدل عليه كلمة تجلي الله، فوجود الإله ليس الوجود الإنساني هو ما يدل عليه، بل نداؤه عبر وجه الآخر".^(٢٥)

ويؤكد ليفيناس أن علاقتي بالإله تبدأ مع الآخر كالإزام أخلاقي ينبع من وعي الذات، استجابة لنداء الأوامر الإلهية على وجه الآخر، أو ربما يكون خوفاً من الإله نفسه، إذ يظهر أثره العظيم اللامتاهي عند حدوث اللقاء وجهاً لوجه، مما يضطرنني إلى تلبية النداء دون انتظار مقابل، وهنا تكمن أهمية الوجه في التواصل مع الآخر.

وبذلك يصبح التواصل عبر الوجه هو الذي يحرم علي قتل الآخر، وقد أشار إلى ذلك فيليب نيمو Philippe Nemo^(*) في حديثه مع ليفيناس حيث يقول: "إن قصص الحروب تخبرنا في الحقيقة أنه من الصعب قتل إنسان ينظر إليك مباشرة ووجهاً لوجه".^(٢٦) وقد علق ليفيناس على ذلك بأنه لا يمكن لأي شخص أن يلتقي بآخر وجهاً لوجه ثم يقتله، فالوجه دلالة، لكنه دلالة لا سياق لها^(*)، مؤكداً على أن حرمة قتل الإنسان موجودة في وجهه، لذلك يقول: "إن الآخر يكمن في وجهه، فعلى سبيل المثال إذا تخيلنا شخصاً ما: أستاذ في السوربون، أو نائب للرئيس في مجلس الدولة، هذا التوصيف هو ما يوجد من بيانات في جواز سفره، وعاداته في ارتداء الملابس، وتقديمه لنفسه. فكل مغزى لذلك ندرکه كدلالة مناسبة لهذا السياق: فمعنى الشيء ندرکه بمعرفتنا لعلاقة هذا الشيء بشيء آخر. أما بالنسبة للوجه فيحدث العكس، فالوجه هو معنى مستقل بذاته، أنت هو أنت. وبهذا المعنى فإن الوجه ليس مرثياً. إنه ما لا يمكن احتواؤه، ويقودك إلى ما وراءه. لأن الرؤية بحث عن التطابق، إنها ما يبتلع الكينونة. أما العلاقة مع الوجه فهي في الأساس علاقة أخلاقية: فالوجه هو ما لا يمكن لأحد قتله، أو على الأقل هو ما يتضمن معناه القول بـ "لن نُقتل أبداً".^(٢٧) ذلك الأمر الإلهي الذي يستخلصه رجال الدين من الكتب المقدسة، ويقر به ليفيناس عبر وجه الآخر.^(**)

(25) Emmanuel Levinas, *Entre Nous – On thinking of the Other*, Translated by, Michael B. Smith and Barbara Harshav, Colombia University press, New York, 1998, p 132.

(*) فيليب نيمو Philippe Nemo: هو فيلسوف فرنسي ولد بباريس في ١١ مايو ١٩٤٩، ويعمل كأستاذ متفرغ في Escp Business School بباريس، وقد عمل أستاذاً منذ ١٩٨٢، وهو مسئول عن مادة العلوم الإنسانية والاجتماعية، وفي السبعينيات كان ينتمي إلى مجموعة تسمى "الفلاسفة الجدد"، هذه المجموعة أصبحت مشهورة في بلاد عديدة بسبب نقدها الراديكالي للأسس الفلسفية للماركسية، وفي عام ١٩٧٨ نشر كتاب عن الكتاب المقدس اليهودي تحت اسم (أيوب وفائض الشر Job and The Excess Of Evil)، وتمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية والإيطالية والإسبانية. وقد قام ليفيناس بالتعليق على هذا الكتاب، فقام نيمو بنشر كتاب لاحقاً اسمه (الأخلاق واللامتناهي) <https://escp.eu/nemo-philippe>

(26) Emmanuel Levinas: *Ethics and Infinity Conversations with Philippe Nemo*, p 86.
(*) يقصد هنا ليفيناس أن الوجه نستخلص منه دلالة ما، ولكنها تكون دلالة بغير محتوى، بمعنى أننا نستخلص حرمة القتل فور اللقاء بيد أن هذه الحرمة ليست شيئاً مباشراً، بل هي شيء يدرك في فرارة النفس دون حدوث حوار.

(27) Emmanuel Levinas, *Ethics and Infinity: Conversation with Philippe Nemo*, p 86.
(**) واحدة من أهم المناقشات الأساسية عن ليفيناس الحديث حول اعتباره فيلسوفاً أم مفكراً يهودياً متوسعاً، كان ليفيناس متأثراً بعمق بالتقاليد اليهودية، وقد درس التلمود بصرامة، وكتب بغزارة تحديداً في مواضيع يهودية،

وكما أشار ليفيناس إلى أن كلمة الإله تتحدث عبر الوجه باعتبارها نداءً مقدساً نسمعه فور التواصل وجهاً لوجه، يعبر عن ذلك بقوله: "ثمة شيئان غريبان في الوجه: هشاشته القصوى-كونه مجرداً- ومن جهة أخرى، سلطته. الأمر كما لو أن الله يتكلم من خلال الوجه".^(٢٨) فوجه الآخر عند ليفيناس هو مصدر وجوده الذي يثير فينا بواعث مسئوليتنا عنه وتجاهه، حيث يقول: "فقرّب القريب هو بمثابة مسئولية الأنا من أجل الآخر".^(٢٩)

وهنا تظهر فكرة الله كآخر، ولكنه ليس كالآخر الإنساني، بل ويسبق كل التزام أخلاقي تجاه الآخر الإنساني؛ إلا أن ليفيناس يرفض التصور الإلهي المتواضع الذي يجعل الإلهي يحل في الإنساني كآخر، حيث يقول: "فكرة إنزال الخالق إلى مستوى المخلوق، تعني وضع الأكثر نشاطاً وإيجابية في الأقل نشاطاً والأكثر سلبية".^(٣٠)

ويرفض أيضاً ليفيناس التجلي الحسي الإلهي، إلا أنه يقبل فكرة التجلي الإلهي عبر الحسي الذي هو وجه الإنسان، فالإله يخترق الحضور دون أن يستقر فيه، وعبر وجه الإنسان يتجلى ليس فقط ليمنع القتل، بل أيضاً يحثني على مساعدة الفقير والمحتاج، وأن أكون في عون المسكين، وأن أخاف على حياة الآخر، بل وأن أشعر بمسئولية الأنا الكاملة عنه. فأمر اللامتناهي بحماية الآخر والمسئولية عنه يستحيل من كونه خارجياً إلى صوت داخلي يشهد بإخلاص.^(٣١)

إن الأنا عند ليفيناس لا يكون إنسانياً إلا إذا هجر ذاته؛ فنكران الذات هو الولاء للآخرين. وبذلك يصبح وجه الآخر هو بمثابة (أيقونة الإله)، أو ما ذهب إليه ليفيناس بالتجلي المقدس لوجه الآخر.^(٣٢)

ولكنه أيضاً اهتم بفصلها عن أعماله الفلسفية، وقد اعتبر نفسه فينومينولوجياً مستنكراً القول بأنه مفكر يهودي، مع الاعتراف بأنه أحياناً يستخدم الدين كمرجع، ولكنه يؤكد أن فلسفته التحليلية لا تعتمد على الدين كمرجع للتبرير، مشيراً إلى أنه يزعجه أن يثبت معنى كلامه بأية من الكتاب المقدس.

Stephen Minister & Jackson Murtha: Levinas and The Philosophy of Religion, Philosophy Compass, Blackwell Publishing, 2010, p. (1023- 1024), 10.1111/j.1747-9991.2010.00342.x

(٢٨) إيمانويل ليفيناس: مفارقة الخلقية – حوار مع إيمانويل ليفيناس، شارك في الحوار: أليسون آينلي، بيتر هيوز، تامرا رايت، ٢٠١٨، ص ١٣.

(29) Emmanuel Levinas: Entre Nous – On Thinking Of The Other, p 186.

(30) Ibid, p 53.

(31) Emmanuel Levinas, Ethics and Infinity: Conversation with Philippe Nemo, p109.

(٣٢) غيضان السيد علي: التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس، ص ٤٠٠.

ثالثاً: تقديس العلاقة الأخلاقية بين الأنا والآخر عبر الوجه:

أكد ليفيناس أن العلاقة بالآخر هي جوهر الأخلاق الأكثر أهمية في العلاقة بالوجود، فليس الوجود أو الأنطولوجيا عند ليفيناس هو المسألة الأساسية، بل الأخلاق، والعلاقة بالآخرين. فعلاقة "الوجه ب الوجه" هي ما يتجلى فيها الأخلاق، ومن خلال الوجه ندرك المعنى الحقيقي للإنسانية، كما ندرك اللامتاهي؛ وهنا تتجاوز فينومينولوجيا الوجه الإنساني عند ليفيناس أنطولوجيا هايدجر المتناهية^(*) إلى إدراك اللامتاهي؛ حيث يمكن من خلال الوجه الإنساني إدراك الحضور الحقيقي لله.⁽³³⁾

ويعتبر حضور وجه الآخر عند ليفيناس حالة من الأمان والرغبة في التعاون ومسئولية الذات عن الآخر. فالوجه لوجه ليست دعوة إلى الصراع والعنف، كما ذهبت وجودية سارتر بقوله: "الجحيم هم الآخرون".⁽³⁴⁾ بقدر ما هي علاقة قبول وحوار وتسامح، فالوجه يقاوم دائماً التملك والاحتواء.

يشير ليفيناس إلى أن الظهور المقدس للإله لا يكون إلا عن طريق الوجه، الذي هو وجه الآخر. ويتجلى فيه نداء اللامتاهي، فكلمة الإله تُسمع عبر الوجه، ودون أي حوار يبدأ الأنا في سماع أوامر اللامتاهي بالحفاظ على الآخر، وشعوري بالمسئولية تجاهه، ومنع القتل.⁽³⁵⁾

إلا أن الفلسفة الأخلاقية عنده ليست فقط فلسفة اجتماعية، بل هي فلسفة كل ما هو إنساني، لأن اللقاء بالوجه هو بمثابة الحدث الذي يكمن فيه الحوار، حتى وإن كان حواراً دون أي خطاب موجه، فهو تجلّ للإله في الوجه لحظة اللقاء، حيث يقول ليفيناس: "حينما تلتقي الأنا بالأنثى، تبدأ العلاقة الأصلية للحدث الأخلاقي".⁽³⁶⁾ فالعلاقة الأخلاقية التي تنشأ بين الأنا والآخر باللقاء وجهاً لوجه هي ما تضع حداً لممارسة العنف، وتشيد الإلزام الخلفي

(*) حيث يشير هايدجر إلى الأنطولوجيا قائلاً: "... فإذا كنا نود أن نتضح لنا مسألة الوجود عن طريق تاريخي، فينبغي أن ينتعش التراث الذي تحجر، وأن يظهر من الشوائب العالقة به بقطعه لهذا الزمن، وهذه المهمة هي تقويض للرصيد الذي أبقى عليه التراث من الأنطولوجيا القديمة". Martin Heidegger: L'Être et le Temps, Trd: De Waelhens, Gallimard, P 39.

مارتن هايدجر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٦، ص ٦٣.
(33) غيضان السيد علي: التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس، ص ٤٠١.
(34) جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ترجمة: عبدالمنعم الحفني، الدار المصرية للعلوم، مصر، ١٩٦٤، ص ٧٢.

(35) Emmanuel Levinas: Otherwise Than Being Or Beyond Essence, p 144-145.

(36) Emmanuel Levinas: Of God Who Comes to Mind, p. 107.

والمسئولية تجاه الآخر، حيث يؤكد ليفيناس أن أول عبارة يمكن سماع ندائها على وجه الآخر: "يجب عليك ألا تقتلني" (*). (٣٧)

إن وجود الآخر هو المحك الرئيس في علاقتي بالإله عند ليفيناس، حيث يقول: "الآخر هو الميتافيزيقا الحقيقية، وضرورة العلاقة مع الإله". (٣٨) مشيراً إلى أن الفيصل في تجسيد علاقتنا باللامتناهي هو علاقتنا بالآخر؛ ويعد الوجه بمثابة الجسر الذي يأخذنا إلى اللامتناهي. إلا أن ليفيناس يؤكد على أهمية اللامتناهي في إمكان الحفاظ على العلاقة الأخلاقية بين الأنا والآخر.

وقد اعتبر ليفيناس التجلي المقدس للوجه كنتظير فلسفي يضع حدًا للنظرة الفوقية التي تتظرها الذات للآخر، وكان ذلك بمثابة رد فعل مباشر لتلك الرؤية التي سادت معظم تاريخ الفلسفة الغربية، ومن ثم أعاد ليفيناس الآخر إلى دائرة اهتمام الأنا إلى الحد الذي يجعل الأنا مسئولة وبصورة كاملة عن الآخر، بل وحارسة له، وكبت جماح هيمنة الذات على الآخر. فوجه الآخر هو بيت المعنى أو بالأحرى بابه، كما ذكر دريدا في تأبينه لليفيناس. (٣٩)

فالآخر هنا بتجلي الإله فيه ينزع إليه ميتافيزيقياً كما لو كان نزوعي إليه هو ما يشبع كينونتي، وكما هو شائع في تفسير هذا النزوع (*). بحيث يتحدد على أساس العوز والنقص الذي تشعر به الأنا، ويمكن أن يتطابق مع وعيه بما فقد، ويمكن أيضاً أن يكون وبشكل أساسي الحنين للعودة، ومن ثم فهذا النزوع ليس ضرورياً أن يتشابه مع حقيقة الآخر. (٤٠) بل هو نزوع إلى اللامتناهي.

(*) ويلاحظ هنا تأثير كتابات ليفيناس بالكتاب المقدس حيث إن حقيقة الوحي هي ما دعت ليفيناس إلى تقديم الكتاب المقدس كأفضل مثال لفلسفة أخلاق العلو، حيث يؤكد على الأهمية العظمى لتقديم الكتاب، نظراً لأن بنية رسالته تقوم على تعدد المعاني وغموضها؛ وذلك لتقديم المساعدة لقارئه، حتى يستطيع ترجمته، في خلال قراءته للمحتوى التاريخي. فهذه البنية كانت شفوية، وكتبت كقانون إلزامي، هذا القانون يدعو للشعور بالوحدة التي تحتل على الالتزام به، واتباع محتواه. فالترجمة الفردية للكتاب تفسر معان مختلفة للمصطلحات التي يحتويها الكتاب، كالمسئولية من أجل الآخر، والحرية. وفي الوقت نفسه فالعلاقة وجهاً لوجه يكون فيها إما استجابة جوهرية للأوامر الإلهية، أو معصية. وكل هذه التبريرات تؤكد على النزعة الكامنة وراء تأثيره بالدين اليهودي. Emmanuel Levinas: Revelation In The Jewish Tradition, Translated by: Sarah Hand, Blackwell 1989, Oxford, UK, p 190.

(37) Emmanuel Levinas, Totality and Infinity, p 216.

(38) Ibid, p 39.

(39) Jacques Derrida: Adieu to Emmanuel Levinas, translated by: Pascale-Anne Braulet & Michael Naas, Stanford university press, California, 1999, p 26.

(*) ينتقد هنا ليفيناس ديكرت، نظراً لأن ديكرت يقدم اللامتناهي على أنه مجرد نظرية تأمل ومعرفة، أما بالنسبة لليفيناس فالعلاقة مع اللامتناهي ليست معرفة بل نزوع؛ موضحاً أن الاختلاف بين النزوع للشيء والحاجة إليه، هو أن النزوع يشبه الرغبة التي لا يمكن إشباعها، وتقنات على جوعها، وتزداد مع إشباعها. Emmanuel Levinas: Totality and Infinity, p 50.

(40) Emmanuel Levinas: Totality and Infinity, p 33.

يشير ليفيناس إلى أن الوجه الذي استقبله في اللقاء يأخذني من الظاهرة إلى الوجود في معنى آخر، فالخطاب الذي يصدر عن الوجه يوجّه لاستعطاف الآخر بضرورة الاستجابة له وتحمله مسئوليته. حيث يقول: 'الرؤية ليست تعالٍ، ولكنها تنسب إلى دلالة العلاقة الأخلاقية التي تنشأ بمجرد الرؤية'.^(٤١) ويوضح ليفيناس أن الآخر كوجه يظهر للأنا لا يمكن أن يخضع لعمليات الرد والاختزال، فالوجه نظراً لما يحمل من دلالات تجسد الإنسانية قبل أن تجسد الآخر نفسه؛ لا يمكن اختزاله أبداً. والآخر هو غريب عن الأنا، وغربته هي التي تحفظ المسافة التي تجمعنا به، وعلاقتي به لا تكون إلا على سبيل الانفصال التام، وكل ما يجمعني به هو كونه حراً في ذاته، ولا سلطة لي عليه، ويقول ليفيناس: "إن العلاقة من خلال انفصال مطلق بين الموجودات تتأثر بشكل أساسي بهذا الانفصال. هذه العلاقة الميتافيزيقية مع الآخر يمكن استيعابها مبدئياً فقط عن طريق الوجه".^(٤٢) بمعنى أنها لا يمكن أن تنشأ إلا وجهاً لوجه.

ويفسر ليفيناس الإلزام الخفي الذي تفرضه الأنا على نفسها تجاه الآخر، حيث يرى أن سببه هو علاقة الآخر باللامتناهي التي أدركها لحظة رؤيتي لوجهه، وهي أيضاً ما يجعلني أشعر بضرورة عدم ممارسة سلطتي عليه في كوني أستطيع قتله أم لا، رغم أنه بإمكانني ذلك إذا أردت، حيث يقول ليفيناس: "الآخر لا يظهر فقط كوجه أو كظاهرة منادياً بحريته، بل يكون في علاقة باللامتناهي، حيث يبرز نفسه من البداية كمطلق، ومن ثم تقوم الأنا باستخلاصه من هذه العلاقة؛ وبلقاء الأنا بوجه الآخر تسمع نداءه عالياً بطلب العدل، مما يجعل الأنا مسؤولة عن تلبية هذا النداء".^(٤٣)

يشير جاك دريدا إلى أن علاقة الأنا بالآخر عند ليفيناس، باللقاء وجهاً لوجه هي علاقة مباشرة، وبالرغم من ذلك فهي علاقة ماهوية، فالآخر الذي يظهر لي عاري الوجه هو في حقيقة الأمر يزرع نفسه في مجال مسئوليتي، ويجعلني منوطاً بالحفاظ على سلامته.^(٤٤)

والوجه بالتحديد هو الوحيد المفتوحة دلالته على اللامتناهي ولذلك يدخل النداء الإلهي بعدم القتل في منظومة الوجه، وهنا يقصد ليفيناس أن ماهية الآخر لا تنفك عن الاتحاد باللامتناهي، بيد أننا نكتشفها عبر الوجه كجوابة للامتناهي.^(٤٥) ولذلك يربط ليفيناس تقديس

(41) Ibid, p 191.

(42) Ibid, p.220.

(43) Emmanuel Levinas: Totality and Infinity, p215.

(44) Jacques Derrida: Adieu to Emmanuel Levinas, p 7.

(45) Emmanuel Levinas :Discovering Existence With Husserl, Translated and Edited by: Richard A Cohen and Michael B Smith, Northwestern University press, Evanston, Illinois, 1998, 162 - 163.

العلاقة الأخلاقية، بالتواصل عبر الوجه، من حيث إنه يتجلى فيه الإله على هيئة أمر بعدم القتل على وجه الآخر.

كان ليفيناس قد عرّف الهوية بأنها التي تقف مع حدود الآخر، لأن الأنا يبحث عن هويته خلال الآخر، والآخر الغريب المختلف عن هوية الذات يمثل الأساس الذي تتشكل به الهوية الخاصة للأنا، لكونها ليست وحيدة في هذا العالم، فهي مجبرة على الاحتكاك بالهويات الأخرى التي تختلف في لغتها وهويتها الثقافية. فمن هذا المنطلق وبالإضافة لتجلي الوجه يكون هذا الاحتكاك أساساً في تكوين الهوية^(*). ويقول ليفيناس: "الأخلاق تدل مسبقاً على ما يعبر عن علاقة إنسان بإنسان آخر، أو بمعنى آخر هي المعبر نفسه للإنسانية في الإنسان، عوضاً عن انفتاح الأنا كشبيه مع الآخر في غيريته".^(٤٦) فالعلاقات الاجتماعية ليست مجرد علاقة بين عدد من الأفراد، بل هي علاقة مع الآخر، فهي تتناغم بين الأنا والجميع - وهؤلاء الأفراد غير قابلين للاختزال -، وهي رغبة التواصل وجهاً لوجه دون وسيط، والآخر ليس مجرد أنا مختلفة عني، فهو عنده ما ليس عندي، يقول ليفيناس: "العلاقات الاجتماعية تكون في عالم التواصل، فالأشخاص ليسوا الواحد أمام الآخر، بل هم بعضهم لبعض، حول شيء ما، فالقريب هو الشريك، لهذا السبب تنشأ الحضارة باعتبارها علاقة مع الناس، وليس لديها على الإطلاق مقدرة على الانعزال".^(٤٧)

لخص ليفيناس التواصل مع الآخر في الوجه، مشيراً إلى أن حجب الوجه يمنع لغة التفاهم ويقتضب الحوار، فالملمث لا يقيم علاقة أبداً مع الآخر، بل هو بتلثمه يرفض أي علاقة اجتماعية، حتى لو بدا من هذا الملمث عينيه أو أنفه، أو حتى ذقنه، إنه يعبر عن الأنا فقط، لأن الأنف أو العين أو الجبهة لا يُعرف منها شيئاً، فالوجه هو ما يعبر عن الإشارات العضوية التي تظهر عليه، مما يعني أنه ينفرد بهذه الصفة عن باقي أعضاء الجسم. وبذلك فإن المعنى الضمني لكل شخص يكمن في وجهه. والوجه بتكشّفه يُعد الحقيقة المحضة، وعبر قداسة الوجه يمكننا أن نستنبط الإخلاص أو الخيانة أو نشعر بالحب، ويشير ليفيناس إلى ذلك بقوله: "إن الوجه بمثابة المغزى الأول the first signification".^(٤٨)

(*) بمعنى أن هوية الإنسان لدى ليفيناس لا تتحدد بنيتها الأساسية إلا بالتخارج، ويتفق معه "هومي بهابا" أستاذ العلوم الإنسانية بجامعة هارفارد، من أهم الشخصيات الرائدة في فكر ما بعد الاستعماري؛ حيث يقول: "إن الهوية ليست شيئاً مسبقاً ولا إنتاجاً نهائياً، وإنما هي فقط إشكالية الصيرورة خلال الارتقاء إلى صورة أكثر شمولية".

Françoise Verges: Fanon and Freedom, in: The Fact of Blackness, Frantz Fanon and Visual Representation, Edited by: Alan Read, London, Bay Press, 1996, XVIII p 64.

(٤٦) رحيم عمر: فينومينولوجيا الوجه والإيروس عند إيمانويل ليفيناس، ص ٦٨.
(47) Emmanuel Levinas: Existence and Existents, translated by: Alphonso Lingis, Kluwer Academic Publisher, London, 1988, p 57, 58.

(48) Emmanuel Levinas: Totality and Infinity, p 207.

ويوضح ليفيناس أن وجه الآخر الذي يكون في علاقة مع اللامتناهي هو الأساس الذي بسببه ينشأ الإلزام الخلفي للذات فيقول: "إن العلاقة مع الآخر وحده تقدم بعداً للعلو^(*)، وتقودنا لعلاقة مختلفة تماماً عن الخبرة الحسية للمصطلح بكلمة أناي^(**)".^(٤٩) لأن الوجه بتعالیه لا ينفك عن الاتصال باللامتناهي، فنجدّه يقول: "إن مفهوم العلو يدل بالتحديد على الفعل الذي لا يمكننا من خلاله أن نفكر في إلهه والوجود معاً".^(٥٠)

ويخضع فكر الأنا في علاقة الوجه بالوجه إلى اختلاف، فينتقل وعلى الفور من فكر عن "a thought of"، إلى فكر من أجل "a thought for"، بتخليه عن الأثرة وعدم الاكتراث بالآخر. وتظهر الأخلاق هنا كتنقيص للعنف، والمسئولية الأخلاقية تفرض تحريم أي فعل قد يؤدي بحياة الآخر، لأن الأنا دائماً يمتلكها خوف على الآخر، خوف يفوق أنانيتها، ومن هنا ينشأ الشعور بالمسئولية تجاه الآخر، فالوجه بمثابة انكشاف وافتقار إلى كل خطاب من الممكن أن يقربه من الآخر، ومن خلال الوجه يصبح الإنسان في حالة فناء واتحاد مع الآخر، ليس كجسد واحد، وإنما كشخص مسؤل عنه، ويقول ليفيناس: "إن موت الآخر يتهمني ويضعني موضع تساؤل، وكأن الأنا قد أصبحت بفعل هذا الموت متواطئة، بلا مبالاتها، لأنها مطالبة بتحمل مسئولية الآخر، وبعدم تركه يموت وحيداً".^(٥١) وكان تركي له يجعلني شريكاً في موته^(٥٢)، ومن ثم فوجه الآخر الذي هو دون ملجأ ودون أية حماية، يتكشف لي بعريّه قائلاً: "لن تقوم بالقتل" وهذا الوجه هنا يحمل النداء الإلهي وأوامره^(٥٣). وبذلك تتبثق علاقتي الأخلاقية بالآخر، ويهيمن حقه في الحياة على حق وجودي أنا، ولذلك تصبح الذات عند ليفيناس مدينة للآخر أكثر من نفسها، ويؤكد على ذلك ليفيناس بقوله: "أنا مسؤل عن الآخر دون انتظار المعاملة بالمثل، لدرجة أنني يمكن أن أموت من أجله".^(٥٤)

ويشير ليفيناس إلى مدى أهمية الموت في تحديد العلاقة مع الآخر، وذلك بإعطاء الأساس الأخلاقي للزمن والموت، بإفراغهما من الصبغة الأنطولوجية^(*)، والموت يجعل الفرد

(*) A dimension of Transcendence.

(**) Egoist.

(49) Emmanuel Levinas: Totality and Infinity, p 193.

(50) Ibid, p 52.

(51) Emmanuel Levinas: Entre Nous – On Thinking Of The Other, p. 186.

(52) Emmanuel Levinas: Alterity and Transcendence, p 25.

(53) Ibid, p 104.

(54) Zlatan Filipovic: Introduction to Emmanuel Levinas: 'After you, sir', In: Moderna Språk, Institutionen för modernspråk, Vol. 105, no 1, 2011, p. 65.

(*) يتضح مدى تأثير ليفيناس بالدين اليهودي، فالإنسان الغربي يبحث عن الحرية إلى الحد الذي جعل من العصر الحديث عالماً لا قانون له؛ إلا أن اليهودية هي على النقيض، فاليهودي يكتسب حرّيته بأن يعيش تحت الشريعة، التي تتطلب منه الشعور بالمسئولية، وذلك ما ينادي به ليفيناس. فالدين اليهودي بهذا المعنى دين لا أنطولوجي، بل دين ميتافيزيقي حسب معجم ليفيناس. حيث يشير إلى أن اليهودية هي الأيديولوجيا المرادفة للإنسانية. نقلاً عن

يدرك معنى الفرص الأخيرة كصحة أخلاقية يستثمرها لأجل غيره، على شكل عطاء ومسئولية.^(٥٥)

رابعاً: تأسيس المسؤولية الذاتية عن الآخر:

يحدد ليفيناس علاقتنا بالوجه بأنها علاقة أخلاقية بامتياز، والعلاقة بالآخر تلزمنا تجاهه بإلزام خلقي، يتجسد في المسؤولية، فأمام الوجه الذي هو خطابه الأساسي دائماً يحمل معنى أن يكون الواحد مسئولاً عن الآخر، ليس باعتباره غريباً، وإنما باعتباره أخاً قريباً تُجبر على تلبية ندائه، وقد أكد ليفيناس أن الشعور بالآخر لا بد أن يترجم نفسه إلى إحساس عميق بالمسئولية تجاهه، وكأن الآخر هو الأخ الذي يشعر الإنسان نحوه بالمسئولية.^(٥٦)

وعندما تستجيب الأنا لنداء وجه الآخر في اللقاء يتخلى الإنسان عن أنانيته الفطرية ويستعد لأن يتحمل عبء مسؤولية الآخر على كاهله، حيث تلبية ندائه تجعل الأنا مستعدة لأن تضحي بنفسها من أجل الآخر، في حين كونها لا تنتظر المسؤولية من الآخر، بل بالعكس تكون أكثر مسئولية منه، ويعد ليفيناس هنا متأثراً إلى حد كبير برواية الإخوة كرامازوف لديستوفسكي، إذ يأخذ بقول "اليوشا" (بطل الرواية) والتي يرددها بكثرة في معظم أعماله، والتي فحواها: "نحن كلنا مذنبون تجاه بعضنا البعض، وأنا أكثر ذنباً من الآخرين".^(٥٧)

فأساس المسؤولية هذه هي أنها ليست تماثلية ولا تناظرية بين الأنا والآخر^(٥٨)، باعتبار الأنا دائماً تشعر بالمسئولية الأكبر تجاه الآخر، حيث يقول ليفيناس: "فمسئوليتي غير قابلة للتنازل عنها، وما من أحد بإمكانه تعويضني".^(٥٩) بحيث نكون مسئولين أمام الموت، وتحديداً موت الآخر.

ويفسر ليفيناس إمكان التضحية بالذات من أجل الآخر حيث يقول: "من المستحيل ترك هذا الآخر وحيداً أمام الموت، ربما السلام الذي نراه في عين الآخر هو ما يوقف

عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الخامس دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٥٥) رحيم عمر: فينومينولوجيا الوجه والأيروس عند إيمانويل ليفيناس، ص ٧٧.

(٥٦) عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ص ٤١٣.

(57) Richard Kearney: "Philosophies of Religion" In: Twentieth-Century Continental Philosophy, p. 167.

(٥٨) سلمى بالحاج مبروك: إيتيقا المسؤولية تجاه الآخر عند إيمانويل ليفيناس أو الأنا حارسة للآخر، منشورة على الموقع الإلكتروني لمؤسسة مؤمنون بلا حدود، مايو ٢٠١٥، على الرابط التالي

<https://www.mominoun.com/articles> ص ٩ تاريخ الدخول على الموقع أكتوبر ٢٠١٩.

(59) Emmanuel Levinas: Ethics and Infinity, Conversation with Philippe Nemo, p. 96.

بداخلنا الشعور بالمسئولية، وهذا ما يمكن أن نلمسه عبر العطاء الذي قد يصل بنا أن نقدم
للآخر هبة الموت من أجله".^(٦٠)

وتتبلور هذه المسئولية من خلال الحب، ولا يقصد ليفيناس بالحب، ذاك الحب بين
الرجل والمرأة، أو الحب الناتج عن الرغبة، لكنه يقصد ذلك الحب الذي لا تتخلله الرغبة
والذي تركز عليه الدلالة الفطرية لهذه الكلمة، فالحب هنا من أجل الحب فقط، وذلك يشبه
إلى حد كبير مفهوم الواجب عند كانط، ولذلك نجده يقول: "إنه الحب بلا رغبة، ذلك الذي
ترتكز عليه الدلالة الفطرية لهذه الكلمة المنهكة، والتي تفترضها مسبقاً كل ثقافة أدبية في
حين يحكي الكتاب المقدس كله عن حالات تساميتها وانتهاكها".^(٦١)

إن أهم ما يميز صورة الآخر عند ليفيناس أن الأنا قلقة بشأن الآخر "قبل أي فعل
آخر prior to any act"^(٦٢)، مشيراً إلى أن هذا القلق هو ما يدفعها لتقبل تحدي الدفاع عنه
لأن الوجه هو ما يذكّر الأنا بمسئوليتها تجاه الآخر.^(٦٣) وبذلك يصبح الإنسان الأخلاقي عند
ليفيناس مسئولاً عن كل شيء يخص الآخر، فأنا موجود من أجل الآخر، أنا أحياء؛ لأن
الآخر الذي ترتبط حياتي به حي ويشاركني الوجود، وفي الوقت نفسه يعتبر ليفيناس أننا في
حاجة للقانون بسبب التعددية حيث يقول: "لو كان هناك شخصان فقط في العالم، لما كانت
الحاجة إلى محكمة العدل، لأنني سأكون دائماً مسئولاً عن الآخر وأمامه، لكن مجرد أن
يوجد ثلاثة أشخاص حتى تصبح العلاقة الأخلاقية بالآخر سياسية، وتدرج ضمن الخطاب
الكلّي للأنطولوجيا".^(٦٤)

ومع ذلك فإن السبيل الوحيد إلى الله عند ليفيناس لا يكون إلا من خلال هذا الآخر
الإنساني، أي من خلال مسئوليتنا عن هذا الآخر؛ تلك المسئولية التي تسبق القانون والتي
يمكن وصفها بأنها "وحي الله". وهنا يتحول التعالي المطلق لله إلى مسئولية ذاتية تجاه
الآخر.^(٦٥)

(60) Emmanuel Levinas, *Entre Nous – On Thinking Of The Other*, p 208.

(61) *Ibid*, p 186.

(62) Emmanuel Levinas: *Ethics and Politics: (Levinas in discussion with Alain Finkielkraut)* Translated by: Jonathan Romney, In: Emmanuel Levinas, *The Levinas Readers*, p: 290.

(63) Emmanuel Levinas: *Entre Nous – On Thinking Of The Other*, p. 186.

(64) Richard Kearney: *States of Mind, Dialogues with Contemporary Thinkers on the European Mind*, Manchester University Press, 1995, p 178.

(٦٥) غيضان السيد علي: التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس، ص ٤٠٢.

ويتعجب ليفيناس كيف أخفق الفلاسفة في الانتباه لعلاقتنا الأساسية بالموت، فالأمر ليس له علاقة بعدمية الموت التي لا نعلم عنها شيئاً بالتحديد، حيث نبدأ بالتحليل حينما يظهر موقف غير معلوم مطلقاً.^(٦٦) وبذلك يستحيل الموت من دلالاته البيولوجية والأنطولوجية ليصبح ذي معنى أسمى، متبلوراً في المسؤولية الذاتية عن الخطر الذي يهدد الآخر، وهكذا تتحول العلاقة مع الموت من إشكال أنطولوجي إلى علاقة أخلاقية بامتياز.^(٦٧)

والمسئولية هنا كما يشير ليفيناس ليست شرطاً قانونياً بارداً، وإنما مسؤولية ديناميكية حية تتبع من الإلزام الأخلاقي عن طريق الوجه، فالوجه دلالة، وإنما نستشعر معناً جديداً للروح ونحن بصدد هذه الدلالة، من حيث إنها لا تقيم الفكرة المخصصة للآخر، ويمكن أيضاً تسميتها الحب، الذي يطالب به وجه الآخر، وهو ليس فرضية مسبقة من خبرة ما، ولا يأتي من فراغ في العالم.^(٦٨) ويبدو ليفيناس هنا معتقاً للأخلاق الكانطية، فالأخلاق عنده من أجل الأخلاق، أي الأخلاق بلا منفعة، أو بلا مقابل فكما أشار مسبقاً إلى مسؤولية الأنا أنها مسؤولية لا تماثلية.

(66) Emmanuel Levinas: Time and The Other, Translated By: Richard A. Cohen, In: The LevinasReader, p 41.

(٦٧) رحيم عمر: فينومينولوجيا الوجه والأيروس عند إيمانويل ليفيناس، ص ٧٣.

(68) Emmanuel Levinas: Entre Nous – On Thinking Of The Other, p 187.

خاتمة:

مما سبق يتضح لنا أن فلسفة ليفيناس تعد فلسفة نسقية، بالإضافة إلى أنه يقوم بالتنظير الفلسفي الذي يتخلله نزعة دينية، وبالرغم من أنه جعل من الأخلاق الفلسفة الأولى إلا أنه أسس أنضج أفكاره في ضوء الأوامر التوراتية كإشكالية الوجه التي بني عليها فلسفته الأخلاقية. فبال تأكيد كان ليفيناس على وعي بأن أول أمر إلهي تجاه المجتمع في التوراة هو "لا تقتل"، ذلك الأمر الذي أشار إليه بأنه أول حوار يحدث من الوجه لحظة اللقاء.. وبذلك يمكننا الآن الإجابة عن الأسئلة الأساسية للبحث:

أولاً: التواصل بين الأنا والآخر من دون خطاب بحسب ليفيناس يرتكز أساساً على الوجه، ففي اللقاء وجهاً لوجه يكون الوجه محملاً بالمعاني العميقة والصادقة؛ وقد شدد على حضور الوجه للحد الذي جعله يساوي بين حضور الوجه وهو ملثم وغيابه.

ثانياً: يعمل النداء الإلهي الذي تسمعه الأنا في وجه الآخر أثناء التواصل على تقويض الأثرة الفطرية الراسخة في النفس البشرية، فالوجه ليس مجرد ملامح؛ بل فيه من العلو ما يذكر الأنا باللامتناهي وأوامره.

ثالثاً: يترتب على هذا التقويض لحب الذات، فرض مسئولية على النفس باتباع الأوامر الإلهية المسموعة في الوجه؛ ولكن يحدد ليفيناس شرطاً أساسياً في هذه المسئولية، فهي ليست تبادلية، فالأنا لا تنتظر من الآخر الشعور نفسه.

رابعاً: يتسع مدى المسئولية التي تشعر بها الأنا تجاه الآخر لدرجة تصل إلى التضحية بالنفس من أجله. فالأنا لا يمكنها تحمل الشعور بالذنب؛ إلا أنه ليس من المنطقي القيام بهذه التضحية، ولكن التحديق بالوجه بحسب ليفيناس يمكنه أن يدفع الأنا إلى ذلك، لأن النظرة التي تكون على وجه الآخر تفسرها الأنا بأنها إذا تخاذلت في هذه التضحية، تكون بذلك شريكة في موته.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية

1. Emmanuel Levinas, Alterity and Transcendence, translated by Michael B. Smith, The Athlone Press, 1999.
2. ———, Discovering Existence with Husserl, translated and edited by Richard A Cohen and Michael B Smith, Northwestern University press, Evanston, Illinois, 1998.
3. ———, Difficult Freedom Essays of Judaism, translated by: Sean Hand, The John Hopkins University Press, Baltimore, 1990
4. ———, Collected philosophical Papers, Translated by: AlphonsoLingis, Martin Najhoff Publishers, Dordrecht, the Netherlands, 1987.
5. ———, Existence and Existents, translated by AlphonsoLingis, Kluwer Academic Publisher, London, 1988.
6. ———, Entre nous – On Thinking of the Other, translated by, Michael B. Smith and Barbara Harshav, Colombia university press, New york, 1998.
7. ———, Ethics and Infinity: Conversation with Philippe Nemo, translated by Richard A. Cohen, Duquesne University Press, Pittsburgh, 1985.
8. ———, God Death and Time, translated by: Bettina Bergo, Stanford press university, California, 2000
9. ———, Of God Who Comes to Mind, translated by Bettina Bergo, Stanford university press, California, 1998.
10. ———, Otherwise than being or Beyond Essence, translated by AlphonsoLingis, Kluwer Academic Publishers, Netherlands , 1991.
11. ———, The Levinas' Reader, edited by Sean Hand, Basil Blackwell Ltd, Oxford, 1989.
12. ———, Totality and infinity, translated by AlphonsoLingis, MartinusNijhoff publishers, London, 1979.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1. Francoise Verges, Fanon and Freedom, in: The Fact of Blackness Frantz Fanon and Visual Representation, Edited by: Alan Read London, Bay Press, 1996, XVIII.
2. Jacques Derrida, Adieu to Emmanuel Levinas, translated by Pascale-Anne Brault and Michael Nas, Stanford University press, California, 1999.
3. Jacques Derrida: L'écriture et la Difference, Edition de Seuil, Paris, 1967.
4. Richard Kearney, States of Mind, Dialogues with Contemporary Thinkers on the European Mind, Manchester University Press, 1995.
5. Richard Kearney, Twentieth-Century Continental Philosophy, Vol VIII, Routledge, London, 1994.
6. Stephen Minister & Jackson Murtha: Levinas and, The Philosophy of Religion, Philosophy Compass, Blackwell Publishing, 2010
7. Terry Eagleton, Trouble with Strangers: A Study of Ethics, Wiley-Blackwell A John wiley & sons publications, Sussex, 2009.
8. Zlatan Filipovic: Introduction to Emmanuel Levinas: 'After you, sir', In: ModernaSpråk, Institutionen för moderna språk, Vol. 105, no 1, 2011

ثالثاً: المصادر المترجمة إلى العربية

1. جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ترجمة: عبد المنعم الحفني، الدار المصرية للعلوم، مصر، ١٩٦٤.

رابعاً: المراجع العربية:

١. أحمد ابراهيم: إشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هيدجر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٦.
٢. أ.د. صفاء عبدالسلام جعفر: الوجود الحقيقي عند مارتن هايدجر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠.
٣. عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الخامس دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩.

خامساً الدوريات:

١. إيمانويل ليفيناس: مفارقة الخلقية - حوار مع إيمانويل ليفيناس، شارك في الحوار: أليسون آينلي، بيتر هبوز، تامرا رايت، مجلة الاستغراب، العدد العاشر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، شتاء ٢٠١٨
٢. ريتشارد كيرني: مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس من الفينومينولوجيا إلى الإيتيقا حوار مع إيمانويل ليفيناس، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، أوراق فلسفية (إيمانويل ليفيناس) - عادل ضاهر العدد ١٧، القاهرة ٢٠٠٧.
٣. غيضان السيد علي: التجلي المقدس لوجه الآخر في فلسفة ليفيناس، مجلة كلية الآداب جامعة المنيا، العدد ٨٧، المجلد الأول، يوليو ٢٠١٨.

سادساً: المواقع الإلكترونية:

١. سلمى بالحاج مبروك: إيتيقا المسئولية تجاه الآخر عند إيمانويل ليفيناس أو الأنا حارسة للآخر، منشورة على الموقع الإلكتروني لمؤسسة مؤمنون بلا حدود بتاريخ مايو ٢٠١٥، على الرابط التالي <https://www.mominoun.com/articles>
2. wikipedia.org/wiki/Alphonso_Lingis
3. <https://escp.eu/nemo-philippe>

سابعاً: الرسائل:

١. رحيم عمر: فينومينولوجيا الوجه والإيروس عند إيمانويل ليفيناس، رسالة ماجستير غير منشورة، شعبة الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر، ٢٠١٥-٢٠١٦.

